سُورَةُ النَّبَإِ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾.

﴿عَمَّ﴾ أصله «عن» ما، حُذفت الألف تخفيفاً وما فيه من الإبهام، لفخامة شأن المسؤول عنه، أيْ عن أيِّ شيءٍ عظيم يتساءلون؟ ومعنى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، والمراد بهم الكفرة من أهل مكة، بطريق الاستهزاء، كانوا يتساءلون عن البعث، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كلاَّ سيعلمون﴾ لأنه تهديد، والتهديد للكفار، أو السائل والمجيب هو الله عز وجل، نظيره: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليومَ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[1] وإيراد الكلام في معرض السؤال والجواب، أقرب إلى التفهيم والإيضاح ثم قال تعالى:

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم، قال الأكثرون: هو

---

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

البعث، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] ؟. وقيل: عن محمد ﷺ.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمن جازم باستحالته، يقول: ﴿إِنْ هي إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا﴾ ومن شاك يقول: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ومنهم من ينكر المعاد الجسماني، كجمهور النصارى الذين يقولون: إن النعيم والعقاب روحاني، ولا بعث للأجساد.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا صريح في أن المراد اختلاف الجاهلين به والمنكرين له، وهو أمر البعث بعد الموت ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر عن التساؤل والسخرية ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً، أن ما يتساءلون عنه حق، وهذا تعليل للردع، والسين للتقريب والتأكيد، والمعنى: ليرتدعوا عما هم عليه، فإنهم سيعلمون عمَّا قليل حقيقة الحال، إذا حلَّ بهم العذاب.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرره للتشديد، وثم يشعر أن الثاني أبلغ من الأول وأشد، وقيل: الأول عند النزع، والثاني عند البعث.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦﴾.

---

(١) سورة المطففين، آية: ٤.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق النبأ، ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو «البعثُ» والمعنى: قل لهم يا محمد: ألم يخلق الله هذه الخلائق العجيبة؟ فلمَ تنكرون قدرته على البعث؟ وما هو إلاَّ اختراع كهذه الاختراعات؟ والهمزة للتقرير ﴿مِهَٰدًا﴾ أي فراشاً، فرشناها لكم حتى سكنتموها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي غرائز تشبه الأوتاد للأرض، لئلا تميد بكم.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي ذكراً وأنثى، ليسكن كلٌّ من الصنفين إلى الآخر، وينتظم أمر المعاش، ويتسنى التناسل، أو المراد منه «متقابلين» كالحسن والقبيح، والطول والقصر، والأضداد، وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة، والإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وقدر الأمن عند الخوف، وذلك أبلغ في تعريف النعم.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم، قاطعاً لأعمالكم، والنوم يشبه الموت لما بينهما من المشاركة التامة، في انقطاع أحكام الحياة[1] كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ قال الزجاج: لا يليق الموت بهذا

(١) جعل الله النوم راحة لأبدان البشر، وغذاءً لأرواحهم، وبدون النوم يهلك الإنسان، وتخور قواه، وفي النوم تذكير للعباد بالموت، كما أن في اليقظة بعد النوم تذكير لهم بالبعث من القبور!.

المكان، لأن الأشياء المذكورة من جلائل النعم، وقال ابن الأعرابي: أي نوماً منقطعاً لا دائماً، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أي سبباً لتحصيل الكسب والمعاش، تبعثون فيه من نومكم، كما في قوله تعالى: ﴿وجعل النهار نشورا﴾ ينتشر فيه الناس للعمل.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ أي وشيّدنا فوقكم سبع سماوات، قوية الخلق، محكمة البناء، والتعبير عن خلقها بالبناء، مبنيٌّ على تنزيلها منزلة القباب المضروبة فوق رؤوسكم ﴿سَبْعًا﴾ أي سبع سماوات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة أي محكمة قوية.

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ هذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق، خلا أنه مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، والوهَّاجُ: الوقَّاد المتلألىء، الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، والمراد به الشمس، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السماوات بالبناء.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي السحائب إذا أُعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي ماء دافقاً، منصباً بكثرة، وشدة يقال: ثجَّ الماءُ إذا تدفق بكثرة وغزارة.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ أي بالماء، لننبت حباً يُقتات به، كالبُرِّ، والشعير، والعدس، والذُّرة ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلأ يُعتلف، وأنواع الزروع، غذاءً للإنسان والحيوان.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي الأشجار المتكاثفة المظللة بالتفاف أغصانها ﴿أَلْفَافًا﴾ وهي جمع لف، أي ملتفاً بعضها على بعض من كثرة أغصانها.

واعلم أن فيما ذكر من أفعاله عزَّ وجل، دلالة على صحة البعث والنشور من وجوه:

الأول: باعتبار قدرته، فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة، كان على الإعادة أقدر.

الثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات، على نمط رائع، لغاية جليلة، يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

الثالث: باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم، أنموذج للبعث بعد الموت، وكذا إخراج النبات من الأرض الميتة، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال البديعة العجيبة، الدالة على حقيَّة البعث، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتتساءلون عنه استهزاءً؟.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم الحساب والجزاء، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، وفيه تفصيل لكيفية وقوعه، وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب ﴿كَانَ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِيقَٰتًا﴾ أي وقتاً محدوداً، ومنتهىً معلوماً، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل من يوم الفصل، ولا ضير في تأخير الفصل عن النفخ، فإنه زمان ممتد، يقع في مبدئه النفخ، وفي بقيته الفصل ﴿فَتَأْتُونَ﴾ الفاء فصيحة أي فتخرجون من قبوركم، فتأتون إلى الموقف، عقيب ذلك، من غير لبث أصلاً ولا إمهال ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي أمماً، كل أمة مع إمامها، أو زمراً وجماعات مختلفة، حسب اختلاف أعمالهم.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي تشققت السماء وتصدّعت، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي كثرت أبوابها المفتحة، لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد، كأن الكل صار أبواباً، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائكةُ تَنزيلاً﴾.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي نسفت في الجو بعد قلعها من مقارها، فصارت كأنها هباء، وذلك أن الأجسام العظام، إذا تحركت لا تكاد تبين حركاتها، وإن كانت في غاية السرعة، لا سيما من بعيد، فتبدل الأرض، وتُسيَّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة، عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية

ليشاهدوها، ثم تُفرَّق في الهواء ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي فصارت بعد تسييرها مثل السراب في عين الناظر، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى، لكنَّ تسييرها وتسوية الأرض، إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا. يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾[1] الآية، والداعي إسرافيل عليه السلام، فإن اتباعه لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار، وخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عندها، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾.

﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ أي كائناً للطاغين، والمراد منهم من تكبَّر على ربه وطغى ﴿مَآبًا﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه.

﴿لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَّابِثِينَ فِيهَآ﴾ أي ماكثين مقيمين في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ أي دهوراً متتابعة، كلما مضتْ حقبة تبعتها حقبةٌ أخرى، إلى غير نهاية، فإن «الحقب» لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد به تتابع الأزمنة، فليس فيه ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحقب ثمانون سنة، أو سبعون ألف سنة، فإن هذا إن دلَّ فمن قبيل المفهوم، فلا يعارض المنطوق الدال على

(١) سورة طه، آية: ١٠٥ ـ ١٠٨.

أبدية خلود الكفار في النار، والحِقْبُ: الدهر جمعه أحقاب، مثل قفل وأقفال.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ في النار ﴿بَرْدًا﴾ أي ماءً بارداً، أو هواءً بارداً، وقال ابن عباس: البردُ: النومُ، وهو قول الأخفش، والكسائي، والفراء، وقطرب، وإنما سُمِّي النومُ برداً، لأنه يبرِّد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد، ومن أمثال العرب «منع البَرْدُ البردَ» أي أصاب من البرد ما منع النوم، والقول الأول أولى، لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ بارداً يسكن عطشهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ أي لكنْ يذوقون فيها ماءً حاراً، يحرق ما يأتي عليه ﴿وَغَسَّاقًا﴾ أي ماء منتناً يسيل من صديد أهل النار.

﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿جَزَاءً﴾ أي جُوزوا جزاءً ﴿وِفَاقًا﴾ أي موافقاً لأعمالهم. فإن قيل: كيف يكون هذا العذاب الأبدي، البالغ في الشدة، وفاقاً للإتيان فترة من الكفر؟ والجواب: لأنهم كانوا مصرين على الباطل، ولو خلّدوا في الدنيا لبقوا على الكفر، فلما كانت أفعالهم وإصرارهم كذلك، كان اللائق بهم العقوبة العظيمة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لا يخافون محاسبة الله تعالى إياهم، تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام، وصيغة فِعال» بمعنى تفعيل مطّردٌ في كلام الفصحاء، أي تكذيباً مفرطاً.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالهم ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي ضبطناه ﴿كِتَابًا﴾ مؤكد لأحصيناه، لما أن الإحصاء والكتابة من باب واحد، بمعنى مكتوباً في اللوح، أو في صحف الحفظة، والمعنى: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وأجازيهم جزاءً، وفاقاً.

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا﴾ متسبِّبٌ عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات، والالتفاتُ شاهد على شدة الغضب ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ كلمة لن للتأكيد في النفي دالة على المبالغة في التعذيب، قيل هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار، كلما استغاثوا من نوعٍ من العذاب، أُغيثوا بأشدَّ منه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين، أي الذين يتقون عن الكفر، وسائر أعمال الكفرة ﴿مَفَازًا﴾ أي فوزاً وظفراً، ونجاة من كل مكروه، ويصح أن يراد به هنا الجنة، أي لهم الفوز بجنات النعيم، لأنه تعالى فسّر المفاز بما بعده، وهو قوله تعالى:

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴾ أي لهم بساتين ناضرة، فيها من جميع الأشجار والثمار.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب، وهنَّ النواهد اللَّواتي تكعبت ثُدْيُهنَّ، أي استدارت وبرزت حتى صارت كالكعب ﴿ أَتۡرَابٗا ﴾ أي مستويات في السن، متقاربات في الجمال، على ثلاثة وثلاثين سنة.

﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَكَأۡسٗا ﴾ أي كأساً من الخمر ﴿ دِهَاقٗا ﴾ ملآناً، يقال: أدهق الحوضَ: ملأه، وقيل: صافية.

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة في حالة شربهم ﴿ لَغۡوٗا ﴾ أي باطلاً ﴿ وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ أي لا ينطقون بلغوٍ، ولا يُكذِّب بعضُهم بعضاً.

﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ جَزَآءٗ ﴾ كائناً ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ بمقتضى وعده الكريم، والتعرُّضُ للربوبية مع الإضافة إلى ضميره مزيد تشريف له ﷺ ﴿ عَطَآءً ﴾ تفضلاً منه إذْ لا يجب عليه شيء[1] ﴿ حِسَابٗا ﴾ صفة لعطاء أي كافياً وافياً، يقال: حسبُكَ درهمٌ أي

(١) كونه «جزاءً» يستدعي الاستحقاق، وكونه «عطاء» يستدعي عدم الاستحقاق، فكيف =

كافيك ومنه قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» قال ابن قتيبة: يقال: أعطيتُ فلاناً عطاء حساباً أي أكثرت له، وأصل هذا أن يعطيه حتى يقول: حسبي[1].

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿رَّبِّ﴾ بالجرِّ بدل من ربك أي خالق ومبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق والأشياء ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الذي عمَّت رحمته كل شيء، وهي صفة الرب وَفي ذكر ربوبيته تعالى للكل، ورحمته الواسعة، إشعار بمدار الجزاء المذكور ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير لأهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم، لغاية العظمة والكبرياء، من غير إذنه سبحانه، لأن اليوم رهيب وعصيب، وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه تعالى.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام عند الجمهور، وهو المختار لأن القرآن الكريم، دلَّ على أن هذا الاسم اسم جبريل، لقوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾ والذي نزل بالوحي على رسل الله هو جبريل عليه السلام، والكلام صحيح من جبريل، ويصحُّ أن يُؤذن له، لأنه رئيس الملائكة وكبيرهم، ولهذا عطف عليه الملائكة،

= التوفيق بينهما؟ والجواب أن ذلك الاستحقاق صدر بحكم الوعد، لأن الله لا يخلف الميعاد، فصار كأنه واجب عليه، ونظراً لأنه لا يجب على الله شيء أخبر تعالى أنه عطاء محض من خالق الأرض والسماء، فتنبه رعاك الله!!.

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٥١٠.

وهو من باب عطف العام على الخاص، تنبيهاً على جلالة قدر الخاص ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين، وقال بعضهم: يقومون صفوفاً، لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وذكر قيامهم واصطفافهم، لتحقيق عظمة سلطانه وكبريائه، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي الخلائق في ذلك اليوم، خوفاً وإجلالاً لعظمته تعالى، والمعنى: أن أهل السماوات والأرض، إذا لم يقدروا يومئذ أن يتكلموا بشيء، فكيف يملكون خطاب ربِّ العزة والجلال؟ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إظهاره في موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أنَّ أحداً يستحقه عليه سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلمون إلا عند حصول الشرطين ١ ـ الإذن ٢ ـ بأن يكون المشفوع له ممن يقول صواباً في الدنيا، بأن قال «لا إله إلا الله» فكان مؤمناً موحّداً، ومات على التوحيد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، أي ذلك ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ العظيم، الذي يقوم فيه الروح والملائكة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت وقوعه، المتحقق لا محالة أنه حق، لأنه يحصل فيه أداء جميع الحقوق إلى أصحابها، ويزهق كل باطل، وفيه تبلى السرائر ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف، كأنه قيل: وإذا كان الأمر كذلك فمن أراد ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذكر شأنه العظيم ﴿مَـَٔابًا﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفار بما ذُكر في السورة، من الآيات الناطقة بالبعث، وما بعده من الدواهي، وبسائر القوارع في القرآن، وإنما ذكر

الإنذار، لأنه تعالى بهذا الوصف، قد خوف وهو معنى الإنذار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾[1] هو عذاب الآخرة، وقربه لتحقق إتيانه حتماً، لأن كلَّ ما هو آتٍ قريب، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي عذاباً كائناً يوم ينظر المرء أي يبصر الكافر والمؤمن، وكلُّ إنسان ما فعل في الدنيا، فاللفظ عام يشمل كل إنسان ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من خير أو شر، وتخصيصُ الأيدي بالذِّكر، لأن أكثر الأعمال تقع بها ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للذمِّ ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ أي في الدنيا فلم أُخلقْ، ولم أُكلَّفْ، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم، ونظيره ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيةَ﴾ أي موتته في الدنيا ولم يُبعث، وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ وقيل: تحشر الحيوانات، يوم القيامة، فيقتص للجمَّاء من القرناء، ثم يردُّها الله تراباً، فيودُّ الكافر حينئذٍ أن يكون كالبهائم تراباً، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

* * *

(١) أشار إلى الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». والجلحاء التي لا قرون لها، والقرناء التي لها قرون.

مكية، وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

لا وقف إلى هنا، ولزم هنا، لأنها لو وصلت لصار ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفٌ للمدبِّرات، وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم!! واختلفت عبارات المفسرين في هذه الآيات هل هي صفات لشيء واحد، أم لأشياء مختلفة؟ واتفقوا على أنَّ المراد بقوله: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ وصفٌ لشيء واحد، وهم الملائكة، وفي الآيات وجوهٌ:

الأول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة وعنف، أغرق في الشيء: بالغ فيه.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أي الملائكة تنشط نفس المؤمن بسهولة ولين، نشط في عمله خفَّ وأسرع، وإنما خصَّ النزع بنفس الكافر، والنشط بنفس المؤمن، لأنَّ النزعَ جذبٌ بشدة، والنشط جذبٌ برفق.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه، يقال له: سابح.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ هم الملائكة تسبق بالأرواح إلى محلها.

الوجه الثاني: هي الأرواح.

الوجه الثالث: النجوم تنزع من أفق إلى أفق.

الوجه الرابع: خيل الغزاة.

الوجه الخامس: النازعاتُ: ملكُ الموت، الناشطات: الأرواحُ، السابحاتُ: السفنُ، السابقاتُ: نفوس المؤمنين إلى الخيرات.

هذه الوجوه المنقولة عن المفسرين، غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصاً، بل ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها، والذي يليق بشأن التنزيل هو القول الأول.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الموكَّلون بتدبير شؤون الكون والناس.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الرجفُ: شدةُ الحركة، والراجفة التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبَالُ﴾ وهي النفخة الأولى، التي يموت منها جميع الخلق.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولىٰ، وهي النفخة الثانية، والأولى تميت الخلق، والثانية تحييهم، وبينهما أربعون سنة، واليوم عبارة عن الزمان الممتد الذي يقع فيه النفختان، واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية، لتهويل اليوم، ببيان كونه موقِعاً لداهيتَيْنِ عظيمتَيْن، لا يبقىٰ عند وقوع الأولىٰ حيٌّ إلاَّ مات، ولا عند وقوع الثانية ميتٌ إلاَّ بُعث.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي قلوب منكري البعث في ذلك اليوم، أي يوم البعث ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي مضطربةٌ، خائفة، فزعة.

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَبْصَارُهَا ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ أي ذليلة لهول ما ترى.

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾؟ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث، أي يقول هؤلاء الكفرة الآن ـ أي في الدنيا ـ إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، منكرين له، متعجبين منه، أنردُّ بعد الموت، فنرجع كما كنا أحياء بعد الفناء؟ والمراد بالحافرة الحالة الأولى، يعنون الحياة، أي أنردُّ إلى الحياة، من قولهم: رَجَع فلانٌ في حافرته، أي في طريقته التي جاء منها فحفرها، أي أثَّر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة لأنها تُعيد البشر إلى حياتهم الأولى، ومعنى الآية: أنرد إلى أول حالنا؟ ثم زادوا استبعاداً فقالوا:

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ أي بالية، والمعنى: أنرد إلى الحياة بعد إذ صرنا عظاماً بالية؟ نَخِر العظم نخراً إذا بلي وتفتَّت، أي أئذا كنا عظاماً بالية، نردُّ ونُبعث من جديد، مع كونها أبعد شيء من الحياة؟.

﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء، مشيرين إلى ما أنكروه من الرَدة

في الحافرة ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي رجعةٌ ذات خسران، أو خاسرٌ أصحابها، والمعنى: إنها إن صحَّتْ فنحن إذاً خاسرون، لتكذيبنا بها.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى، فإنها سهلة في قدرته تعالى، فما هي إلا صيحة واحدة، يريد النفخة الثانية، من قولهم: زَجَرَ البعيرَ إذا صاحَ عليه، عبَّر عنها بها، تنبيهاً على كمال اتصالها بها، كأنها عينها.

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد أن كانوا أمواتاً في جوفها، قال الراغب: الساهرةُ وجهُ الأرض، وهي أرضٌ بيضاء مستوية، سُمِّيت ساهرة، لأن من شدة الخَوف يطير النوم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنف واردٌ لتسليته ﷺ بطريق التشويق والترغيب لسماع القصة، كما يقول الإنسان لآخر: هل تدري ما حدث؟ يريد لفت انتباهه، وترغيبه لسماع القصة والخبر، كأنه قيل: أليس قد أتاك حديثه؟.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِذْ نَادَاهُ﴾ أي حين ناداه ﴿رَبُّهُ﴾ أي دعاه وكلَّمه ربُّه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ أي المسمى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادة القول، أي قائلاً له: اذهب إلى فرعون ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ ﴾؟ أي بعدما أتيته هل لك رغبة وتوجه ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان، بالطاعة والإيمان؟ بحذف إحدى التاءين من تتزكى، وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه، لأن المراد: هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكياً عن كل ما لا ينبغي.

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي أرشدك إلى معرفته عزَّ وجل فتعرفه؟ وهذا هو المقصود الأعظم من البعثة، ودلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته، لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي فتتقيه وتخشى عقابه، جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاكُ الأمر، من خشي الله أتى منه كلُّ خير، ومن لا يخاف اجترأ على كل شر، أُمر عليه السلام بأن يخاطبه بالاستفهام، الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف بالقول، ويستنزله بالمداراة من عتوه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي المعجزة الكبرى، والفاء فصيحةٌ تفصح عن جُمَلٍ قد طُويت، تعويلاً على تفصيلها في السورة الأخرى، فإنه عليه السلام ما أراه إيَّاها عقيب هذا الأمر، بل بعدما جرى من المحاورات، إلى أن قال: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والإراءة بمعنى التبصير أو التعريف، فإن اللعين حين أبصرها عرفها، وادعى سحريتها، ونسبتها إلى موسى بالنظر إلى الظاهر، كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنا﴾ بالنظر إلى الحقيقة، والمراد بالآية الكبرى: قلبُ العصا حية.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى عليه السلام وسمَّاه ساحراً، وسمى ما جاء به سحراً ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى، وأصرَّ على إنكار وجود رب العالمين، كذَّب باللسان والجَنَان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولَّى مدبراً فزعاً مرعوباً من هول ما رأى ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يجتهد في مكايدته، وكان طياشاً خفيفاً، سقيم الفهم.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي فجمع السحرة والجنود، والأتباع، وقام فيهم خطيباً ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المجمع بنفسه.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا رب فوقي، وكانت لهم أصنام

يعبدونها، واللعين كان دهرياً، منكراً للصانع والبعث، وقيل: إنه بعد انقلاب العصا صار كالمعتوه لا يدري ما يقول.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ النَّكالُ بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، وهو التعذيب، أي فأهلكه الله وقصمه، ونكَّل به تنكيلاً، عقوبة له على مقالته الفاجرة، الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي﴾ والآخرة وهي قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في الذي فَعَل فرعونُ، وما فُعِل به ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لعظةً عظيمة ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي لمن من شأنه أن يخشى، ويخاف عقاب الله!!.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ لما ختم هذه القصة، رجع إلى مخاطبة منكري البعث، والخطاب هنا لأهل مكة، المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، بطريق التوبيخ، أي أخلقكُم بعد موتكم أشقُّ وأصعب في تقديركم؟ ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع، التي تحار فيها العقول؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟ ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ أي الله عز وجل، وفي عدم ذكر الفاعل، فيه من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه ما لا يخفى.

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلى العلو، مديداً ورفيعاً، وامتداد الشيء إذا أُخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عُمْقاً، وإذا أُخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمْكاً ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوَّاها على أبدع نظام مستوية، وتمَّمها بما يتم به كمالُها، من الكواكب، والنجوم وغيرهما، من قولهم سوَّى فلان أمره إذا أصلحه، قالوا: وهذا يدل على كون السماء كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة، وأيُّ ضررٍ في الدين كونها كرة؟.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلماً، وإنما أضيف إليها لأن الليل والنهار، إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أبرز نهارها، عبَّر عنها بالضحى، لأنه أشرفُ أوقاتها وأطيبها، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذكره عن ذكر الليل، وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، لأن النهار ينبثق من ظلمة الليل، فكأنه يخرج من وكره.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها ومهَّدها للسكنى، وأصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال إن الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن الأرض خُلقت بعد السماء؟ والجواب: خلق الله الأرض أولاً مجتمعة، ثم رفع السماء ثانياً، ثم دحا الأرض ثالثاً، وذلك لأنها كانت كرة مجتمعة، ثم إنه تعالى بسطها مهيأة لنبات الأقوات وهو الذي بيَّنه بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وهذا الاستعداد لا يحصل للأرض، إلاَّ بعد وجود السماء، لأن الأرض كالأمِّ، والسماءَ كالأب، وما لم يحصلا لم تتولد الأولادُ، والحيوانات والنباتاتُ والمعادن، وقيل: معناه: والأرضَ مع ذلك دحاها، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعد ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي مع ذلك فالأقرب أن يحمل بعدية الدحو عنها، على البعدية في الذكر ﴿أَخرَجَ مِنَها مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون وإجراء الأنهار ﴿وَمَرعَىٰهَا﴾ أي كلأها ونباتها، طعاماً للإنسان والحيوان، والسكنى لا تتأتى بمجرد البسط، بل لا بدَّ من تسوية أمر المعاش، من المآكل والمشارب.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي أثبتها وأثبت بها الأرض، وفي هذا تحقيق للحق، وتنبيه على أن الرسوَّ، ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه عزَّ وجلَّ، ولولاه لما ثبتت في نفسها، فضلاً عن إثباتها للأرض، ثم بيَّن تعالى الصلة والحكمة فقال:

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي تمتيعاً لكم ولأنعامكم، لأن فائدة ما ذُكر، واصلةٌ إليهم وإلى أنعامهم، والمراد بالمرعى ما يعمُّ ما يأكله الإنسان والحيوان.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الطامَّةُ: الداهيةُ التي تطمُّ، أي تعلو على سائر الدواهي، وهي القيامة.

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ تفسير للطامة، أي يتذكر فيه كل أحد ما عمله، من خيرٍ أو شر، بأن يشاهده مدوَّناً في صحيفة أعماله، وقد كان نسيه من فرط الغفلة، وطول الأمد.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ ﴾ أي أُظهرت إظهاراً بيِّناً لا يخفى على أحد ﴿ لِمَن يَرَىٰ ﴾ لكل راء من المجرمين، فرأوها رأي العين.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي فأما من عتا وتمرَّد عن الطاعة، وجاوز الحدَّ في العصيان.

﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة، باتباع الشهوات المحرَّمة، ولم يستعد للآخرة بالعبادة، وتهذيب الأخلاق.

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي مأواه ومرجعه نار جهنم، لا مسكن ولا مأوى له سواها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي مقامه بين يدي ربه، لعلمه بالمعاد ﴿ وَنَهَى

ٱلنَّفْسَ﴾ الأمَّارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عن الميل إلى المحارم والشهوات، بحكم الجِبلَّة البشرية، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا، ولم يغترَّ بزخارفها، علماً منه بوخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ليس له سواها، وانظر إلى المقابلة اللطيفة، فقد ذكر تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ﴾ مقابل قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ مقابل قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنها من محاسن علم البديع.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ المشركون كانوا يسمعون القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها صاخة، طامة، قارعة، فقالوا على طريق الاستهزاء ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى إرساؤها؟ أي متى إقامتها؟، يريدون متى يقيمها الله تعالى؟ ومتى تقع وتكون؟.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي في أيّ شيء أنت يا محمد، حتى تذكر لهم وقتها؟ ليس علمها عندك حتى تخبرهم عن وقتها، والآية إنكار وردٌّ لسؤال المشركين عنها، فإنها مما استأثر الله بعلمه؟.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها، أي العلم بكنهها وتفاصيل أمرها، ووقت وقوعها إلى الله عزَّ وجل، لا يعلم متى تكون إلاَّ هو، وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها وقد حصل لهم بمبعثك.

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ أي لم تبعث لتعليمهم وقت الساعة، وإنما بعثت لتنذر من يخاف شدائدها، والآية تقريرٌ لما قبله، وتحقيق لما هو المراد منه، وبيان لوظيفته ﷺ في ذلك الشأن، لأن إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها، ممَّا يوهم بظاهره أن ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه، فأزاح ذلك، ببيان أن المنفي عليه ﷺ ذكرها لهم بتعيين وقتها، حسبما كانوا يسألونه، فالمعنى: إنما وظيفتك ما أُمرتَ به، من بيان اقترابها، وما فيها من صنوف الأهوال، كما تحيط به خُبْراً.

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار، من سرعة مجيء المنذر به، أي كأنَّ هؤلاء الكفار حين يشاهدون أهوال القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ ﴾ أي لم يمكثوا في الدنيا ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أي إلا عشية يوم، أو ضحاه، فلما تُرك اليومُ أُضيف ضحاه إلى عشية، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم أو ضحى يوم، من هول ما يرونه، وزمان المحنة يُعبَّر عنه بالعشية، وزمان الراحة يُعبَّر عنه بالضحى، فيقولون: كأن عمرنا في هاتين الساعتين، نظيره قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾[1] !! والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

* * *

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها إحدى وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

﴿عَبَسَ﴾ أي كَلَح وقطَّب وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض بوجهه.

﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ أي لأن جاءه الأعمى، أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول ﷺ، والأعمى هو «ابن أم مكتوم» واسمه «عبد الله بن شريح بن مالك» أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش «عتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأمية بن خَلَفَ، والوليد بن المغيرة» يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: يا رسول الله أقرئني وعلمني ممَّا علَّمك الله تعالى!! وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم، فكره الرسول مجيئه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان ﷺ يكرمه بعد ذلك ويقول له إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» واستخلفه على المدينة مرتين، وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين وقيل: قُتِلَ شهيداً بالقادسية، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أُنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في ابن أمِّ مكتوم الأعمى، الحديث[1].

---

(١) رواه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٢٨ وذكر تمام القصة، وقال: حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان رقم ١٧٦٩.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أيْ وأيُّ شيءٍ يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى، حتى تعرض عنه؟ ﴿ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي لعله يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه منك من العلم والمعرفة، وكلمة «لعلَّ» مع تحقق التزكي، واردة على سَنَن الكبرياء، على أن الإعراض عنه عند كونه مرجوَّ التزكي ممَّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعاً به؟.

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أي يتعظ بالقرآن ﴿ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ أي موعظتك، أي إنك لا تدري ما هو مترقب منه تزكٍ أو تذكر، ولو دريتَ الحقيقة ما فرط ذلك منك.

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي أعرض عن الإيمان، وعما عندك من العلوم، التي ينطوي عليها القرآن.

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أي تتصدَّى وتتعرض بالإقبال عليه، والاهتمام بإرشاده، وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبِر، ليس من شيم الكرام، وفيه إشارة إلى أن من تصدَّى لتزكيتهم من الكفرة، لا يرجى منهم التزكي.

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، حتى يبعثك الحرص على إسلامهم، إلى الإعراض عن الأعمى ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فليست مهمتك إلاَّ تبليغ دعوة الله، لا تطهيرهم من دنس الشرك.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي حال كونه مسرعاً، طالباً لما عندك من أحكام الرشد.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخشى الله تعالى، ويتقي محارمه.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتشاغل!! يلهيك شأن الصناديد، ومثلك لا ينبغي أن يتصدى للمستغني، ويتلهى عن الفقير، الطالب للخير، روي أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه فقير، ولا تصدى لغني قطُّ.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع، أي لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي السورة، أو الآيات موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي اتعظ بالقرآن، والضميران للقرآن، وتأنيث الأول

لتأنيث خبره، والضمير في «ذَكَره» عائد إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ، قال صاحب النظم: التذكرةُ: القرآن، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾.

ثم وصف جلالة القرآن بقوله:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي كائنة في صحف، منتسخة من اللوح المحفوظ والقول الثاني: أنها صحف الأنبياء عليهم السلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يعني إن هذه التذكرة، مثبتة في صحف الأنبياء ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله تعالى.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين أو عما ليس من كلام الله.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة من الملائكة الأبرار، جمع سافر من السفر وهو الكتب.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله تعالى ﴿بَرَرَةٍ﴾أتقياء جمع بار، أي مطيعين له تعالى.

﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، قال المفسرون: نزلت الآية في «عتبة بن أبي لهب» والمراد ذمُّ كل غني ترفَّع على فقير بسبب الغنى ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾! تعجب من إفراطه في الكفران، وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي من شيء حقير مهين، كأنه قيل: أي سببٍ في هذا العجب والترفع، أوله نطفة قذرة، وآخره جيفةً مذرة وفيما بين الوقتين حمال للعذرة، وهو استفهام ومعناه التقرير والتحقير ولذلك أجاب عنه.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء، والأشكال ونظيره قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم سهَّل خروجه من بطن أمه، وبيَّن له سبيل الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي جعله ذا قبر يُوارى فيه تكرمة له، ولم يتركه مطروحاً على وجه الأرض، ملقى للسباع والطير، كسائر الحيوانات يقال: قَبَر الميِّت إذا دفنه، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكَّن فيه، وعدَّ الإماتة من النعم، لأنها وُصلة ـ في الجملة ـ إلى الحياة الأبدية.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي أحياه بعد موته، وفيه إشعار بأنَّ وقت البعث غير متعين في نفسه، وإنما هو موكولٌ إلى مشيئته تعالى.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن ترفعه وتكبره، وعن كفره ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان لسبب الرّدع، أي لم يقض ما أمره الله به، من الإيمان والطاعة، ولم يفعل ما كلف به من العبادات وعمل الصالحات، ومساق الآيات الكريمة، لبيان غاية جناية الإنسان، وتحقيق كفرانه المفرط، المستوجب للسخط العظيم، ويراد به الإنسان الكافر، لأنه هو الذي جحد فضل الله.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه، بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه، أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد لفضل ربه وإنعامه، نظر تفكر واعتبار، إلى أمر معاشه وحياته.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ يعني المطر من السحاب صبّاً عَجيباً.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات شقاً بديعاً، لائقاً بوضعها بما يشقها من النبات، صغراً وكبراً، وشكلاً وهيئة.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾ أي فأخرجنا من الأرض المشقوقة بالنبات، أنواع الحبوب التي يتغذى بها الإنسان، حباً يقتات الناس به ويدّخرونه.

﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨﴾.

﴿وَعِنَبٗا﴾ أي وعنباً شهياً لذيذاً يأكلونه، وهو غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، فلهذا أتبعه الحب ﴿وَقَضۡبٗا﴾ أي رطباً من أنواع الخضار، تقطع مرة بعد أخرى كالسبانخ، والبقدونس، والنعنع، سميت بمصدر، «قضَبَه» أي قطعه مبالغةً، كأنها لتكرر قطعها نفس القطع.

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩﴾.

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ شجرة الزيتون ﴿وَنَخۡلٗا﴾ شجرة النخيل، وخصَّ الزيتون والنخل بالذكر، لكثرة فوائدهما.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠﴾.

﴿وَحَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة بساتين، وهي كل ما أحيط عليه من الشجر ﴿غُلۡبٗا﴾ عظاماً، وصف به الحدائق، لتكاثفها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ.

﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾.

﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾ أي أنواع الفواكه والثمار، مما تشتهيه النفوس من المأكولات ﴿وَأَبّٗا﴾ أي مرعى لدوابكم، ويراد به العشبُ، رطبُه ويابسه.

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي منفعة لكم، والالتفاتُ لتكميل الامتنان ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي لمواشيكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم، إثر بيان مَبْدَئِهِم ومعاشهم، والصاخةُ: صيحة القيامة، لأنها تصخ الآذان، أي تصمها، وهي الداهية العظيمة التي تعمُّ الناس ويراد بها النفخة الأخيرة.

قال الزجاج: الصخُّ: الطعنُ، والصكُّ، لأنها تصخُّ الآذان بشدة صوتها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي يعرض عنهم ولا يصاحبهم، ولا يسأل عن حالهم لتبعاتٍ بينه وبينهم، أو لاشتغاله بنفسه، وتأخير الأحبِّ فالأحب، كأنه قيل: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه، والمراد من الفرار التباعد.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ في نفسه ﴿يُغْنِيهِ﴾ أي يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره، وقد ورد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تحشرون حفاةً، عراةً، غُرْلاً، فقالت امرأة: يَرَىٰ بعضُنا عورةَ بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»[1].

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٢٥ وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري في =

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ بيانٌ لانقسامهم إلى السعداء والأشقياء، بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوههم مضيئة مشرقة، من أسفر الصبح إذا أضاء، عن ابن عباس أنه من قيام الليل، وعن الضحاك من آثار الوضوء، وقيل: لِمَا اغبرَّت في سبيل الله.

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه وهم المؤمنون، ضاحكون مستبشرون عند الفراغ من الحساب.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غبار وكدورة، أي سوادٌ ودخانٌ من لفح جهنم، للهمِّ الذي نزل بهم.

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أي سواد وظلمة، جَمَع اللهُ في وجوههم بين السواد والغَبَرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور.

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

= الرقاق ١١/ ٣٣٤ باب الحشر، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة، عراة، غرلاً ـ أي غير مختونين ـ فقلت يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» وفي رواية للنسائي ﴿لكلِّ امْرِيءٍ منهُمْ يَوْمئذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر والفجور، الكفر في حقوق الله، والفجور في حقوق العباد، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس»

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية وهي تسع وعشرون أية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي لفت، من كورت العمامة إذا لففتها. كار الرجل العمامة كوراً أدارها على رأسه، وكورها بالتشديد مبالغة، على أنَّ المراد بذلك، إمَّا رفعها وإزالتها من مقرّها، أو لف ضوئها، كما وصفت النجوم بالانكدار، ونحوُه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «الشمس والقمر يكوَّران يوم القيامة»[1].

(١) جاء في الحديث الشريف، أن من علامات الساعة الكبرى، طلوع الشمس من مغربها، كما ورد في الصحيحين، وقد يتساءل الإنسان كيف تطلع الشمس من مغربها؟ والجواب أن ذلك غير ممتنع على قدرة الله تعالى، بل هو أمر منطقي معقول عند علماء الفلك، فإن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق، فإذا انعكس دورانها، فأصبحت تدور من الشرق إلى الغرب، صار طلوع الشمس من المغرب بدل المشرق، وفي هذا إيذان بانتهاء الحياة، على ظهر هذا الكوكب الأرضي، فسبحان من كوَّرها ودوَّرها، وحديث طلوع الشمس من مغربها لعله من أدل البراهين على حركة الأرض ودورانها، وانظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن».

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي انقضَّتْ، وقيل تناثرتْ وتساقطت، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ وقيل: انكدارها انطماسُ نورها، من كَدِر الماءُ من باب تعب زَالَ صفاؤه.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض أي عن أماكنها، بالرجفة الحاصلة، لا في الجو، فإن ذلك بعد النفخة الثانية.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما تكون عند أهلها ﴿عُطِّلَتْ﴾ أي تُركت مهملة، عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ أي الدواب دواب البر ﴿حُشِرَتْ﴾ أي جمعت من كل ناحية، قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذئاب للقصاص، فإذا قضي بينها ردت تراباً، والمراد أنها تتجمع من الهول، وقد كانت شاردة في الشعاب والجبال، فأصبحت لا تأوي إلى أوكارها.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي أُحميت وأوقدت فأصبحت ناراً تضطرم،

وأصبحت مياهها نيراناً تحيط بالبشر، أو ملئت بتفجير بعضها بعضا، حتى تعود بحراً واحداً[1].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت الأرواح بأجسادها، أو قرنت كل نفس بشكلها، ونفوسُ المؤمنين بالصالحين، ونفوس الكافرين بالشياطين، وقيل: كل امرىء بشيعته، المسلمون بالمسلمين، والنصارى بالنصارى، واليهود باليهود.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ أي المدفونة حيَّة، وكانت العرب تئد البنات مخافة الفقر، أو لحوق العار بهم من أجلهن، فقد كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت، ذهب بها إلى الصحراء، وقد حفر لها حفرة، ويلقيها فيها، ويهيل عليها التراب، وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها، وإن ولدت ابناً حبسته ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال تلطف بها وتوبيخ لقاتلها، لتقول: وُئدتُ بلا ذنب.

﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ لتدل على قاتلها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾.

---

(١) القول الأول هو الأظهر لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ أي الموقد ناراً.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحائف الأعمال، فإنها تُطوى عند الموت، وتُنشر وقت الحساب، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿في جنة عالية﴾ وتقع صحيفة الكافر ﴿في سموم وحميم﴾.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي قلعت وأزيلت، كما يُكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاءُ عن الشيء المستور به.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقدت إيقاداً شديداً.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قُرِّبت من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ جواب «إذا» على أن المراد بها زمان واحد ممتدٌّ، مبدؤه النفخة الأولى، ومنتهاه فصل القضاء، أي كل نفس برة أو فاجرة ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من خير أو شر، والمراد بحضورها: حضور صحائفها، وما فيها من خير أو شر، كما ينطق عنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ الآية، وتنكيرُ النفس للإيذان، بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ بالكواكب الرواجع، من خَنَس إذا تأخر، أي أقسمُ بالنجوم الساطعة المضيئة، التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل، سميت خُنَّساً لأنها تختفي عن الأبصار، وهي ما سوى النيرين، من السيارات، ولذا وصفها بقوله.

﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنس الوحشُ إذا دخل كناسه، وهو بيته، تستتر كما تستتر الظباء في كهوفها.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ أي أقبل بظلامه، أو أدبر، وهو من الأضداد وقيل إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى:

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ لأنها أول النهار، والصبحُ إذا أقبل، يقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نَفَساً له مجازاً[1].

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن الكريم، الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة

---

(١) انظر إلى روعة الإبداع في التعبير ﴿والصبح إذا تنفَّس﴾ ففيه تشبيه النور الذي يأتي به الصبح، بنسمات الهواء العليل، التي تحيي النفس، فالصبح حيٌّ يتنفس، أنفاسه النورُ، والحركة، والضياء، وكأنه نائم يغطُّ في سبات عميق، ثم يستيقظ فيستنشق الهواء العليل، وإنما جاءت روعة التعبير، من جمال الاستعارة البديعة.

﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي جبريل عليه السلام، وإنما أضيف إليه، لأنه هو الذي نزل به، وأنه قاله عن الله تعالى ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربه، ومن تكريمه أنه تعالى جعله.. واسطةً بينه وبين رسله.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي قدرة على ما يكلّف به، لا يعجز عنه ولا يضعف، لقوله تعالى: ﴿شديد القوى﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه صاح صيحةً بثمود، فأصبحوا جاثمين ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي عند الله تعالى عندية إكرام، لا عندية مكان ﴿مَكِينٍ﴾ أي ذي جاهٍ، ومنصب ومكانة.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿مُّطَاعٍ﴾ في ملائكته ﴿ثَمَّ﴾ أي في هناك السماوات، يطيعه من فيها ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي ورسالات السماء.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني الرسول ﷺ، والتعرض لعنوان المصاحبة، للتنبيه على شناعة الافتراء، كأنه يقول: هذا الذي تزعمون أنه مجنون، هو صاحبكم الذي صاحبتموه أربعين سنة، وعرفتم عقله وفضله، فكيف تزعمون أنه مجنون؟ أفلا تعقلون؟.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته.

﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي على الوحي، وغيره من الغيوب ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي ببخيل، من الضنّ وهو البخل، ضنَّ بالشيء بخل، فهو ضنين، أي لا يبخل بالوحي، كما يبخل الكهان رغبة في الحلوان، بل يعلّمه كما عُلِّم.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وقيل: كانوا يقولون إنَّ شيطاناً يلقيه على لسانه، فنفى الله تعالى ذلك عنه ﷺ.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأيَّ طريق تسلكونه في تكذيبكم للرسول؟ كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً: أين تذهب؟ أي أين تذهب عقولكم بهذا المنطق السخيف؟.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للخلق أجمعين.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل من العالمين ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء الاستقامة، ويتحرى الحقَّ، وإبداله من العالمين، لأنهم هم المنتفعون بالتذكير.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ الاستقامة ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فإن مشيئتكم لا تستتبع الاستقامة، بدون مشيئته تعالى ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ مالك الخلق كله، ومربيهم أجمعين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»

* * *

سورة الانفطار

مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾ .

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ انشقت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ المَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أبْوَاباً﴾ .

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾ .

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة على وجه الأرض.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها على بعض، فصار الكلُّ بحراً واحداً، فاختلط العذبُ بالأجاج، أو تفجرت فاشتعلت بألسنة النيران كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي اشتعلت نيرانها، من السَّجْر بمعنى الالتهاب، والاحتراق.

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أي قُلب ترابها وأُخرج موتاها، ونظيرهُ بُحثر لفظاً ومعنى.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي كلُّ نفسٍ برُّها وفاجرها، وجواب إذا ﴿ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي ما أسلفت من عملٍ خير أو شر، علمت ذلك عند نشر الصحف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قيل الخطاب لمنكري البعث، أو يتناول جميع العصاة، وهو الأقرب، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أيْ أيَّ شيء خدعك وجرَّأك على عصيانه، وقد علمتَ ما بين يديك من الدواهي وما سيكون؟ قال عمر: غرَّه جهله، وغرَّه حمقه، وعن الحسن: غرَّه شيطانه، والتعرض لعنوان كرمه تعالى، للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره، حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئتَ فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل هو مما يوجب المبالغة في الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك؟ وذِكْرُ «الكريم» للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم، وتسوية المطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام!!.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية، منبهة على أن من قدر على ذلك بدءاً قدر عليه إعادة، والتسويةُ جعلُ الأعضاء سليمة سوية، معدة لمنافعها وعدَّل بعضها ببعض، بحيث لم تتفاوت، أي صيَّرك متناسب الخلق، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، وإحدى العينين أوسع، يمشي قائماً لا كالبهائم، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرَّك بالإيمان، وشرَّفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ما زائدة للتوكيد، أي ركَّبك في أي صورة اقتضتها مشيئته، من الصور المختلفة في الحُسْن، والطول، والقِصَر، واختلاف الصور والهيئة، يدل على قدرة الصانع تعالى.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله وعن الاغترار بكرم الله ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضراب عن جملة مقدرة، كأنه قيل: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجرؤون على أعظم من ذلك، حيث ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي بالجزاء والبعث والنشور، وهذه علة الغرور.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ يحفظون أعمالكم وأقوالكم من الملائكة وهو تحقيق لما يكذبون به، وردٌّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال، أي تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم حافظين.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أي كراماً عند الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير أو شر، وفي تعظيم الكاتبين تفخيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، حيث يستعمل هؤلاء الكرام، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين، ولطف بالمتقين، وهي أشد آية على الغافلين، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ بيان لما يكتبون لأجله ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي لفي الجنة دار السرور والحبور، يتنعَّمون فيها بما لذَّ وطاب.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ أي الكفار ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي لفي النار، وفي تنكير النعيم والجحيم، من التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلونها ويقاسون سعيرها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها بل يجدون سمومها في

قبورهم حسبما قال ﷺ «القبر إمَّا روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النَّار»[1].

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾؟ خطاب للنبي ﷺ، لأنه ﷺ ما كان عالماً بذلك قبل الوحي، وفيه تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به، أي أيَّ شيء جَعَلك دارياً ما يوم الدين؟ لو لم نعرفك أحواله.

﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ كُرِّر للتأكيد والتهويل.

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجهٍ من الوجوه، وإنما تملك الشفاعة بالإذن، وفيه بيان إجمالي لشأن يوم الدين، قال ابن عباس: كلُّ ما في القرآن من قوله: ﴿وما أدراك﴾ فقد أراه، وكلَّ ما فيه من قوله: ﴿وما يدريك﴾ فقد طوى عنه ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ أي: لا أمر إلا لله دون غيره، وفيه تقريرٌ لشدة هوله، أي الحكم والقضاء بين الخلائق يومئذ بيد الله لا يملكه غيره. والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»

* * *

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة بلفظ «إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار».

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، لأن ما يبخس طفيف، أي حقير، روي أنه ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها أبخس الناس كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل.

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ إذا اشتروا من الناس، وكالوا لأنفسهم، أو وزنوا، وهي صفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم، والاكتيالُ: الأخذُ بالكيل، والاتِّزانُ: الأخذُ بالوزن ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذونها وافية، والمراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً، بل أخذ الوافر حسبما أرادوا، بكبس الكيل، وتحريك المكيال، والاحتيال.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا للناس، أو وزنوا لهم، فحذف

الجار ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون وعدم التعرض للمكيل والموزون، لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم، في الأخذ والإعطاء، لا في خصوصية المأخوذ. واختلف العلماء في مقدار التطفيف، فقال بعضهم: هذه الآية دالة على الوعيد، فلا تتناول إلاَّ إذا بلغ نصاب السرقة، وقال الآخرون: بل ما يصغر ويكبر داخل تحت الوعيد، وهذا هو الأصح حتى إن العزم عليه أيضاً من الكبائر، أمر المكيال والميزان عظيم، لأن عامة الخلق يحتاجون في المعاملات إليهما، فلهذا عظَّم الله تعالى أمره. قال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؟ أراد بذلك قد توجه على المطفِّف الوعيد العظيم في أخذ الطفيف، فأنت تأخذ الكثير، بلا كيل ولا وزن!!.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟ يعني يوم القيامة، أدخل الهمزة على «لا» النافية توبيخاً، وفيه إنكار وتعجيب من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، ولو ذرة، فإن من يظن ذلك، وإن كان ظناً خفيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمن تيقَّنه!!.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقومون من قبورهم لحكمه وقضائه، وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصفه تعالى برب العالمين، ووصف اليوم بالعظيم، من البيان البليغ لعظم الذنب، في التطفيف وأمثاله، ما لا يخفى.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن التطفيف، والغفلة عن البعث، ثم أتبعه وعيد

الفجار ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أي صحائف أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين، وأصله من السجن وهو الحبسُ والتَّضييقُ، لأنه سبب الحبس في جهنم، فالمعنى إنَّ كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون، أي كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون، وفيه قبائح الشياطين والكفار من الثقلين.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟ إنما قال ذلك تعظيماً لأمر السجِّين وتهويلاً له.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مسطور أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي بيوم الجزاء.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي متجاوز للحد في الطغيان، غالٍ في التقليد الأعمى، حتى استبعد قدرة الله على الإعادة ﴿أَثِيمٍ﴾ أي منهمك في الشهوات، بحيث شغلته عما وراءها، وحملته على الإنكار.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة للبعث والحساب والجزاء.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع للفاجر الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه ﴿بَلْ رَانَ﴾ أي بل طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ على قلوب المكذبين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والفضائح وفيه بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة، أي ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل هذه المقالات الباطلة، بل ركب على قلوبهم، وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصي، حتى صارت كالصدأ في المرآة، فَحالَ ذلك بينهم وبين معرفة الحق، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة، نُكت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَع، واستغفر، وتاب، صُقِل قلْبُه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الرَّانُ الذي قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، والرَّينُ: الصدأ، ران الشيء على فلان غلبه، ثم أطلق على الغطاء، فمراتب الظلمة على القلب مختلفة، فبعضها يكون رَيْناً، وبعضُها طبعاً، وبعضها إقفالاً.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الغي والضلال ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المكذبين ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ أي عن النظر إلى ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي لممنوعون، فلا يرونه بخلاف المؤمنين، قال الزجاج: والآية دليلٌ على أن المؤمنين يرون ربهم، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً!.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٤٠٤ وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند.

قال مالك: لمَّا حجب أعداءه لا بد أن يتجلى لأوليائه.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ ثم بعد كونهم محجوبين عن الله، لداخلون النار.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ إذا دخلوها توبيخاً من جهة الزبانية ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا فذوقوا عذابه.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن التكذيب أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار. ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ ما كتب فيه أعمالهم الصالحة، والأبرار المطيعون لله، المتقون لمحارمه ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هو علم لديوان الخير، الذي دُوّن فيه كل ما عملته الأبرار، وصلحاء الثقلين، من العلو، لأنه سبب لارتفاع الدرجات في الجنة.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي تحضره الملائكة، ويشهدون على ما فيه يوم القيامة.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ شروع في بيان محاسن أحوالهم.

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ ينظرون إلى كرامة الله ونعمه، وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ تَعْرِفُ ﴾ يا رسول الله ﴿ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بهجة التنعم، وبريقه وطراوته، والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب.

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ في الجنة ﴿ مِن رَّحِيقٍ ﴾ شراب خالص لا غش فيه ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ ختم على ذلك الشراب، ومنع أن تمسه الأيدي، تكريماً له، وهناك خمر آخر، تجري في الأنهار، كما قال تعالى: ﴿وأنهار من خمرٍ﴾ إلاَّ أن هذا المختوم أشرف من الجاري.

﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ تختم أوانيه بمسك، ولعله تمثيل لكمال نفاسته ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ ﴾ الرحيق ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ فليرغب الراغبون، كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس.

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمِزَاجُهُۥ ﴾ أي ما يمزج به ذلك الرحيق ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ سميت بالتسنيم، لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق، وتنصبُّ في أوانيهم.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشربون منها، قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صِرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي كفروا، يعني رؤساء قريش أبا جهل، والوليد، والعاص، وأصحابهم ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الذين آمنوا، مثل عمار وخباب وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاءً بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ أي فقراء المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾ أي بالمشركين وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم إليهم سخرية.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ من مجالسهم أي رجعوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي رجعوا فرحين، متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي المؤمنين أينما كانوا ﴿قَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أصحاب رسول الله ﷺ ﴿لَضَالُّونَ﴾ أي خدع محمد هؤلاء فضلُّوا، وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة، نسبوا المسلمين إلى الضلال.

﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ ﴾ أي وما أرسل الكفار ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين ﴿ حَـٰفِظِينَ ﴾ أي يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم؟ وهذا تهكم بهم، وسخرية واضحة، كأنه تعالى يقول: أنا ما أرسلتهم وكلاء ورقباء على عبادي.

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ برسول الله ﴿ مِنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ على الكفار ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ كما ضحكوا منهم في الدنيا، مجازاةً لهم، حين رأوهم أذلاء مغلولين في النار، قد غشيهم فنون الهوان والصغار، بعد العزة والكبرياء، التي كانوا عليها في الدنيا.

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أي هم جالسون على أسرة الذهب، المكللة بالدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار، ويضحكون عليهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا.

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾؟ والتثويب والإثابة بمعنى: المجازاة، والثواب: الجزاء، أي هل جوزوا ﴿ مَا كَانُوا يَفعلُونَ ﴾ بالمؤمنين في الدنيا؟ بمعنى: هل نالوا جزاءهم بأفعالهم وإجرامهم؟ والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»

* * *

سُورَةُ الانْشِقَاق

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ أي تصدعت وتشققت بالغمام كقوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماءُ بالغمام﴾ وذلك عند قيام الساعة، وهي من علاماتها.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ سمعت وأطاعت، وأجابت ربها إلى الانشقاق، ولم تمتنع، أي انقادت لتأثير قدرته من غير ممانعة ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي جُعِلت حقيقة بالاستماع والانقياد، والمعنى: انقادت لربها، وهي جديرةٌ بذلك، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بسطت وسويت باندكاك جبالها وآكامها، بحيث صارت ﴿قاعاً صفصفاً. لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾ أوزيدت سعة، ولا بد

من الزيادة في طولها وعرضها، لأن الخلق الأولين والآخرين سيحشرون على ظهرها.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ من الكنوز والموتى، كقوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرضُ أثقالها﴾ والتحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء، والأرضُ وُصفت بذلك على سبيل التوسع ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أي خلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء من باطنها، كأنها تكلفت في ذلك.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاء والتخلي ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وهي حقيقة بذلك، وجوابه محذوف للتهويل، أي لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يتصوره الخيال!!.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ ﴾ خطاب للجنس ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي جاهدٌ إلى لقاء ربك، وهو الموت وما بعده، والكَدْحُ: جهدُ النفس في العمل، بحيث يؤثر فيها ﴿ فَمُلَاقِيهِ ﴾ المراد جزاء الكدح، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أي ستلقى جزاءك على عملك كاملاً وافياً، فإمَّا أن تكون من أهل النعيم، أو من أهل الجحيم. إن الإنسان لا ينفكُّ في هذه الحياة، من أولها إلى آخرها، عن الكدح والمشقة، ولما كانت كلمة «إلى» لانتهاء الغاية، فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة، بانتهاء هذه الحياة، فنرجو من فضل الله تعالى، أن يكون الانتهاء، إلى السعادة والرحمة بعد الموت.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ ﴾ أي أُعطي ﴿ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ كتاب حسناته .

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي سهلاً هيناً، لا مناقشة فيه ولا عذاب، و «سوف» من الله تعالى واجب، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب» فقلت: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ فقال: إنما ذلك العَرْضُ، ولكنْ من نوقش عُذِّب»[1] .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ المراد من أهله: أهل الجنة .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ ﴾ أي أعطى كتاب سيئاته ﴿ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وقال في سورة الحاقة: ﴿فأما من أوتي كتابه بشماله﴾ .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾ .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/ ٢١٣ ومسلم رقم ٢٨٧٦ وهذه رواية أبي داود في الجنائز رقم ٣٠٩٣ ورواية البخاري بلفظ «إنما ذاك العرضُ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك».

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ يقول: يا ثبوراه، والثبورُ: الهلاكُ لأنه يعلم أنه من أهل النار، فيدعو بالهلاك على نفسه، قال تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي يدخل ناراً مسعَّرة، فإنه يدعو الثبور، ثم يدخل النار وهو في النار أيضاً يدعو الثبور.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا مسروراً مترفاً، بطراً كديدن الفجار، الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يتفكرون في العواقب.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، تكذيباً منه بالبعث والحَوْرُ: هو الرجوعُ، ومنه حديث «أعوذ بك من الحَوْر بعد الكور» أي الرجوع إلى النقص بعد الكمال.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليس الأمر كما ظن، بل سيرجع إلينا، ويبعث ويحاسب ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأعماله، فلا يهمله بل يجازيه، ولا بدَّ من رجوعه وحسابه، وجزائه عليها، فهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ الشَّفَقُ: الحمرةُ من بعد غروب الشمس التي ترى في الأفق، وهذا هو المشهور في اللغة وقال مجاهد: الشَّفَقُ: النهار كله، لأنه عطف الليل عليه.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ أي اجتمع وتمَّ نوره، وذلك في الأيام البيض، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ أي لتلاقنَّ حالاً بعد حال، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدة والفظاعة، أولها الموتُ، وما بعده من مواطن القيامة، وقيل: الطبق جمع طبقة، وهي المرتبة وهو الأوفق للركوب، أي لتركبن أحوالاً بعد أحوال.

﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ فَمَا لَهُمۡ ﴾ أي كفار مكة ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ برسول الله، ويوم القيامة، أيْ أيَّ شيء يمنعهم عن الإيمان مع تعاضد موجباته؟!.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ أي لا يخضعون لله تعالى بالتوحيد ولا يسجدون لتلاوته؟ فهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وعند سماعهم القرآن لا بدَّ أن يعلموه معجزاً، وإذا علموا ذلك لا بد أن يخضعوا، قيل: قرأ النبي ﷺ ذات يوم ﴿واسجد واقترب﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفّر، فنزلت هذه الآية، وعن رافع قال: «صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العَتَمَةَ ـ يعني صلاة العشاء ـ فقرأ ﴿إذا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فسجدَ، فقلتُ: ما هذه؟ قال: سجدتُ بها خلف أبي القاسم، فلا أزال أسجدُ فيها»[1] وبه احتج أبو حنيفة على وجوب السجدة، قال ابن عباس والحسن: المراد من السجود الصلاةُ، وقال أبو مسلم: الخضوعُ، وقال الآخرون: المراد نفس السجود.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي كفار مكة ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث والقرآن، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته، فالمعنى: إن الدلائل الموجبة للإيمان وإن كانت ظاهرة، لكنَّ الكفار يكذبون بها، فكيف يكذِّبون وبين أيديهم هذا الكتاب المعجز؟.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون

---

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن ٢/ ٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٨ في المساجد والموطأ ١/ ٢٠٥ في القرآن.

من الكفر والحسد، والتكذيب وأصل الكلمة من الوعاء، يقال: أوعيتُ المال إذا جمعته.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ أي فبشر هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون به ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي وجيع مؤلم، في غاية الشدة والغلظة.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي لهم ثواب في الآخرة دائم غير مقطوع.

والله أعلم بمراده والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»

* * *

سُورَةُ البُرُوجِ

مكية وهي اثنان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وهي البروج الأثنا عشر، وقيل: النجوم سميت بروجاً لظهورها، وأصل التركيب للظهور، وإنما حَسُن القسمُ بالبروج، لما فيها من عجيب حكمة الباري، وفيها سير الشمس والسيارات.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي شاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه، وتنكيرهما للإبهام في الوصف، أو للمبالغة، وقيل: الشاهد الرسول ﷺ، والمشهود يوم القيامة، قال الله تعالى عن القيامة: ﴿ذَٰلِكَ يومٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ وذلكَ يوم مَشْهودٌ﴾.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ أي لُعن، والأظهر أنها دعائية، دالة على الجواب، كأنه قيل: أُقسم بهذه الأشياء أنكم؛ أي يا كفار مكة ملعونون، كما لُعن أصحاب الأخدود، لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين، على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفار، وتذكيرهم بما جرى على من تقدَّمهم من التعذيب، حتى يتأسَّوْا بهم ويصبروا، والأخدود هو الشقُّ العظيم في الأرض جمعه أخاديد، وفي قصتهم روايات مختلفة، إلاَّ أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم، أو ملكاً كافراً، فألقاهم في الأخدود[1] ، وتلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر

---

(١) القصة كما وردت في مسند أحمد، وصحيح مسلم «أن مَلِكاً جباراً ظالماً، ادَّعى الربوبية، وكان له ساحر يستعين به، فلما كبر الساحر، طلب من الملك أن يأتيه بغلام شاب ليعلمه السحر، حتى لا يذهب ملكه، فبعث له غلاماً، وكان هذا الغلام يمرُّ في طريقه على رجل عابد زاهد، فتعلَّق قلب الغلام به، فأسلم على يديه، ووصل الصلاح بالغلام إلى درجة عظيمة، حتى صار مستجاب الدعوة، لا يأتيه مريضٌ فيدعو الله له إلاَّ شفاه، وصار من شدة صلاحه يبرىء الأعمى والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأمراض، وكان للملك وزيرٌ أعمى، سمع بأمر هذا الغلام، فأتاه بهدايا ثمينه عظيمة، وقال له: هذه الهدايا كلها لك إن أنت شفيتني!! فقال له الغلام: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ربُّ العالمين، فإن أنت آمنتَ بالله ربِّي، دعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله تعالى، فدعا الله له فشفاه الله تعالى، فأصبح بصيراً، فجاء الوزيرُ إلى الملك وعيناه تبصران، فتعَّجب الملك منه وقال له: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: وهل لك ربٌّ غيري!؟ فقال له: أنت عبد مثلي ضعيف لا تقدر على شيء، وربي وربُّك هو الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك قد بلغ من سحرك أنك تُبرىءُ الأعمى والأبرص، فقال له الغلام: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله رب العالمين، فأخذه فلم يزل يعذبه، حتى دلَّ على العابد فجيء بالعابد فقيل له: إرجع عن دينك؛ فأبى، فأمر الملك به فنشر بالمنشار حتى صار شقتين، ثم أُتي بالغلام فطلب منه أن يرجع =

الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله، تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾.

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصف لها بأنها عظيمة، لهبها من الحطب الكثير، وأبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾.

﴿إِذْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَلَيْهَا﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ أي جلوس على الكراسي في مكان مشرف عليها، وكانوا يعرضون المؤمنين على النار، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن يصبر على دينه ألقوه في النار.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

﴿وَهُمْ﴾ الكفار ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهدون على ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب، وهم حضور لا يرقُّون لهم، لغاية قسوة قلوبهم، هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم، وتنطق به الروايات المشهورة، وقد روي أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين في النار، وهم حولها، عَلِقتْ بهم النار، فأحرقتهم، ونجّى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بنُ أنس، والواحدي، وعلى هذا حَمَلا قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب الحريق﴾.

= عن دينه فأبى، فأمر الملك أن يصعدوا به على رأس جبل عال فيلقوه منه، فلما صعدوا به الجبل، دعا الغلام ربه فقال: اللهم اكفني من شرهم بما شئتَ، فتزلزل بهم الجبل فماتوا وجاء الغلام يمشي إلى الملك..» الخ وانظر تمام الحديث في صحيح مسلم.

﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ من المؤمنين، أي وما أنكروا وما عابوا منهم ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر، أي وما كان لهم ذنب أو جرم عند هؤلاء الفُجَّار، إلاَّ لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذا فضيلة وليس بذنب.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ هذا تأكيد للاستثناء بمناط إيمانهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وعدٌ لهم، ووعيد شديد لمعذبيهم، فإن علمه تعالى بجميع الأشياء، التي من جملتها أعمال الفريقين، يستدعي توفير جزاء كل منهما.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي امتحنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد إمّا أصحاب الأخدود، وإما على الإطلاق، وهذا أولى، لأن اللفظ عام، فالتخصيص ترك للظاهر ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ لم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين، لا يُتصور عن غير الكافر ﴿ فَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي الزائد في الشدة، وفي الحرارة، وهي نار أخرى بسبب فتنتهم للمؤمنين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي الذي يصغر عنده الدنيا وما فيها.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾ استئناف خوطب به النبي ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه، كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية، مع إضافة لضميره ﷺ، البطشُ: الأخذُ بعنف ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي بالغ أقصى أنواع الشدة، ووصفه بالشدة، فقد تضاعف، وهو أخذه بالظلمة والجبابرة أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَىٰ وهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد﴾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ﴾ الخلق ﴿وَيُعِيدُ﴾ بعد الموت، من غير دخل لأحدٍ في شيء منهما، ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ أي الساتر للعيوب، والعافي عن الذنوب ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاع.

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥﴾.

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي خالقه، أي صاحب العرش العظيم، المحيط بالسماوات والأرض، خلقه ليدل على وجوده، دون احتياج إليه، ولهذا قال بعده ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ أي العظيم في ذاته وصفاته.

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد، وفيه دلالة على خلق أفعال العباد.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ أي قد أتاك يا رسول الله، وهو تقرير لشدة بطشه بالظلمة العصاة، والكفرة العتاة، متضمّنٌ لتسليته ﷺ بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرٌ كذلك ﴿ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴾ أي خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية.

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الجنود لأن المراد بفرعون قومه، والمعنى: قد عرفت بتكذيبهم للرسل وما حاق بهم، فتسلَّ واصبر وأنذرهم أن يصيبهم مثل الطغاة المجرمين.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ من قومك ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ لا يَدْعون عنه، إضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم كفراً فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الكريم، مع وضوح أمره.

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى، بقوم أحاط بهم العدو من كل جانب، فسدَّ عليهم المسالك، والمراد من هذه الإحاطة بيان قرب هلاكهم.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي كتاب شريف، وحيد في النظم والمعنى.

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي مصون عن التبديل والتحريف، ووصول الشياطين إليه! والله أعلم بمراده.

والصلوات والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ الكوكب البادي بالليل، والمراد به كواكب السماء النيرة، يقال: طَرَق النجم طروقاً طَلع، وكل ما أتى ليلاً فقد طرق، وهو طارق.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام، أيْ أيَّ شيء أعلمك ما الطارق؟.

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ أي المضيء كأنه يثقب الظلام، فينفذ فيه، وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار.

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ برة أو فاجرة ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم، و «إِنْ» نافيه و «لمَّا» بمعنى إلاَّ، أي ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظ، مهيمن، رقيب، وهو الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم الحفظة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ الآية للتنبيه على أن كل نفس عليها حافظ، يحصي عليها كل ما يصدر عنها، من قول وفعل، وأنه ينبغي على الإنسان أن يتفكر في مبدأ فطرته حق التفكير، حتى يتَّضح له، أنَّ من قدر على إنشائه من مواد، لم تشمَّ رائحة الحياة قطُّ، فهو قادر على إعادته، فيعمل ليوم الإعادة، ما ينفعه ويجديه، ولا يملي على حافظه ما يرديه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ من أي شيءٍ خلقه ربُّه، استفهام وجوابه قوله تعالى:

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ والدَّفقُ صبٌّ فيه دفع، والمراد بالماء الممتزج من الماءين في الرحم، كما ينبىء عنه قوله تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾.

﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي عظام صدرها، وقيل: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، لأنه تعالى بيَّن أن الإنسان مخلوق من ماءٍ دافق، والذي يوصف بذلك ماء الرجل، ثم هو يلتقي بماء المرأة «البويضة» في الرحم.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للخالق تعالى، وقوله ﴿خُلِقَ﴾ يدلُّ عليه، أي إن الذي خلقه ابتداءً مما ذُكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي على إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾ لا يعجز عنه، فالذي بدأ خلقه يعيده.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي تكشف ما أسرَّت به القلوب، من العقائد والنيات، وما أخفي فيها من الأعمال ويميز ما طاب منها وما خبث.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي المطر، وسمي به لعوده كل حين، ويجوز أن يراد بالسماء السحاب، والعرب كانوا يعرفون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما يتصدع عنه من النبات، والله تعالى جعل كيفية خلق الحيوان، دليلاً على المبدأ والمعاد، وذكر في هذا كيفية خلق النبات، فالسماء ذات الرجع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم، وكلاهما من النعم العظام.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يفصل بين الحق والباطل، مبالغ في ذلك، كأنه نفس الفصل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ إنه جِدٌّ كله، وليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث، ومن حق البشر أن يهتدوا به.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكايد في إبطال أمر الله، يعني يحتالون بالمكر، وذلك في دار الندوة حيث تشاوروا في صدِّ الناس عن رسول الله، وتآمروا على قتله.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أجازيهم جزاء كيدهم، باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله إلا على وجه الجزاء.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدعُ عليهم بالهلاك، فَعَمَّا قليل سترى ما يحلُّ بهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي إمهالاً يسيراً وفي تقييده برويداً، من تسليته ﷺ ما لا يخفى!! والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»

* * *

سُورَةُ الأَعْلَى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أي نزّه ربك عزَّ وجلَّ عن صفات العجز والنقص، وعما يقوله الظالمون مما لا يليق به سبحانه من النقائص، والقبائح، كالزوجة، والولد، وجعل الملائكة بنات الله، فهو العلي الكبير الذي لا أحد أكبر منه ولا أعلى، فإنه تعالى أعلى وأجلُّ وأعظم من إدراكنا، فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢﴾.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلق كل شيء فسوى خلقه، بأن جعل له ما به يتأتى كمالُه، ويتسنَّى معاشُه على إحكام واتساق، لأنه صادر عن عالم وحكيم.

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾.

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ أجناس الأشياء، وأنواعها، وأفرادها ومقاديرها وصفتها

وأفعالها وآجالها ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي فوجَّه كلَّ واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، طبعاً أو اختياراً، ويسَّره لما خلق له، بخلق الميول والإلهامات، ولو تتبعتَ أحوال النباتات والحيوانات، لرأيتَ في كل منها ما تحار فيه العقول.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَآءً﴾ أي يابساً، هشيماً ﴿أَحۡوَىٰ﴾ أي أسود بالياً، بعد أن كان أخضر زاهياً، وفي الآية تمثيل للحياة الدنيا، فإنها بعد هذا الجمال والزهاء، ستصير إلى الزوال والفناء.

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ أي على لسان جبريل عليه السلام، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة، والآية بيانٌ لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله ﷺ، إثر بيان هدايته العامة للمخلوقات، وهي هدايته ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن، والسين للتأكيد، أي سنجعلك تقرأ القرآن فلا تنساه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصلاً من قوة الحفظ، ليكون ذلك آية أخرى لك، وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين:

١ ـ أنه كان أمياً فحفظُه لهذا الكتاب من غير دراسة وكتبة، معجزة واضحة.

٢ ـ هذه أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمرٍ عجيب، سيقع في المستقبل، وقد وقع.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ نسيانه أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً، إلاَّ ما شاء الله أن تنساه أبداً، بأن تُنسخ تلاوته، وقيل: المراد به النسيان في الجملة على القلة والنُّدرة، كما روي أنه ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبيٌّ أنها نُسخت، فسأله فقال ﷺ نسيتها، وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ بسورة بالليل، فقال: «يرحمُه اللهُ، لقد أذكرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنسِيتُها من سورة كذا وكذا»[1]. وقيل هذا الاستثناء لم يقع ولم يشأ الله تعالى أن يُنسيه شيئاً، وفائدة هذا الاستثناء أن يعلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ تعليل لما قبله، أي يعلم ما ظهر وما بطن، من الأمور التي من جملتها ما أُوحيَ إليك، فينسي ما شاء إنساءه، ويبقى محفوظاً ما شاء إبقاءه، لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى، في كل باب من أبواب الدين، علماً وتعليماً، واهتداءً وهداية، فيندرج تيسير طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة، مما يتعلق بتكميل نفسه ﷺ، وتكميل غيره، كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فذكر﴾ ودلت هذه الآية على أنه سبحانه، فتح عليه ﷺ من أبواب التيسير، ما لم يفتحه على أحد غيره، كيف لا، وقد كان صبياً لا أبَ له ولا أمَّاً، نشأ في قوم جُهَّال، ثم إنه تعالى جعله قدوة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي عظْ بالقرآن الناس، حسبما يسرناك بما يوحى إليك، واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله ولما تكمَّل ﷺ أُمر بدعوة الخلق بقوله: ﴿فذكِّر﴾ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قيل: هو أمرٌ بالتذكير على الإطلاق، والمعنى: عظْ أنت إن نفعت أو لم تنفع، أو الإشعار بأن التذكير إنما يجب إن ظن نفعه، ولذلك أُمر بالإعراض عن من تولى.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ أي سيتعظ وينتفع بها ﴿مَن﴾ من شأنه أن ﴿يَخْشَىٰ﴾ الله في الجملة، فيزداد خشيةً بالتذكير، فيفكِّر في أمر ما تذكر به، فيقف على حقيقته فيؤمن به.

والناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام:

١ ـ من قطع بصحته.

٢ ـ من ظن.

٣ ـ من أنكر، فالأولان تكون الخشية لهما، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على الخشية في القلب، وصفات القلب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله تعالى، وجب تعميم التذكير تحصيلاً للمقصود.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الكافر أو الأشقى من الكفرة، لتوغله في عداوة النبي ﷺ، قيل: نزلت في الوليد، وعتبة، والعبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ نار جهنم، والصغرى نار الدنيا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً يتلذذ بها، بل هو في عذاب دائم لا ينقطع، وإنما قيل «ثم» لأن هذه الحالة أفظع من دخول النار نفسها، والعرب تقول للمبتلَى «لا هو حيٌّ ولا ميّت».

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهَّر من أدناس الكفر والمعاصي، وروي عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿قَد أَفلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ قال: أعطى صدقة الفطر، وخرج إلى العيد فصلّى، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدَّق ثم صلَّى، ثم يقرأ هذه الآية، وفيه إشكال، فالسورة مكية، ولم يكن في مكة عيد، ولا زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه، وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الصلوات الخمس قاله ابن عباس، واختاره ابن جرير، وعن الضحاك «ذكر اسم ربه» في طريق المصلى ﴿فصلَّى﴾ صلاة العيد، والصحيح قول ابن عباس، لأن أصل الصلاة مشروع من بدء الإسلام.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إضراب عن مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والمخاطب به

الكافرون، أو الناس جميعاً فإن السعي للدنيا أكثر، والمراد بإيثار الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[1].

﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي الآخرة أفضل في نفسها وأدوم، ونعيمها لذيذٌ بالذات، خالصٌ عن الغوائل، وعدم التعرض لبيان تكدُّر نعيم الدنيا بالمنغصات، لغاية ظهوره.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي مثبتةٌ في الصحف القديمة، المنزَّلة على إبراهيم وموسى، والقرآن جامع لشؤون الدنيا والدين، وخلاصة الكتب المنزَّلة على رسل الله.

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ بدل من الصحف الأولى، وفي إبهامها، ووصفها بالقدم، ثم بيانها وتفسيرها، من تفخيم شأنها ما لا يخفى، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

* * *

(١) سورة يونس، آية: ٧.